

القياس الدينامى تقديرًا لذكرى العالم الجليل أ. د. فؤاد أبو حطب

أ. د. صفاء الأعسر*

القياس الدينامى مفهوم وليد لنظرية فيجوتسكى فى البناء العقلى والتعلم الوسيط Mediated Learning ، فعنده تلتقى المفاهيم الأساسية للنظرية :
* قابلية المخ للتشكل Brain Plasticity .

* قابلية المخ للتعديل الذاتى نتيجة للتفاعل مع البيئة Cognitive modifiability .
* حيز النمو الممكن Zone of Proximal Development

النظرية باختصار تبدأ من الأشكالية الخاصة بتفسير البناء العقلى كدالة للتفاعل بين المقومات الوراثية والتكوينية من ناحية ، والمقومات البيئية من ناحية أخرى ، ومصدر الأشكالية تفاوت الباحثين والمنظرين - الى درجة تصل للتعارض - فى تحديد الوزن النسبى لطرفى التفاعل ، وفى هذا السياق يحسب فيجوتسكى من مدرسة البيئة ، حيث ينحاز الى ترجيح دور البيئة فى نظره لهذه الأشكالية ، ويبنى ترجيحه على أساس أدبيات العلم فى مجال البحث التشريحي والنيورولوجى والنفسي والاجتماعى والتربوى . وقد عمق فكر فيجوتسكى العديد من الدراسات التأصيلية والتطبيقية على أيدي علماء هذه المدرسة البيئية .

ومن هذه المنطلقات كان القياس الدينامى الذى يلخص المفاهيم النظرية الأساسية فى سعيه لتجاوز تقدير ما حققه الفرد نتيجة لخبراته السابقة إلى ما يمكن أن يحققه فى المستقبل بتوفير بيئة مناسبة وبعبارة أخرى فإن القياس الدينامى يسعى لقياس إمكانية الفرد للإفادة من التعلم، أى الوسع المعرفى Learning propensity - ويستند فى دعواه إلى أن المخ البشرى نظام مفتوح ينمو ويخبو من خلال تفاعله مع البيئة ، فالبيئة الثرية بالمتغيرات المتجددة المتنوعة تنشط المخ، وتحفز العمليات المعرفية الوجدانية للتوصل لصيغ جديدة من خلالها النمو المستمر أو الوسع المعرفى، كداله لحيز النمو الممكن ، أى تتسع المسافة الدالة على حيز النمو الممكن، وبذات المنطق فإن البيئة الرتيبة المحرومة من تلك المتغيرات تعرض المخ للتيبس المعرفى الوجدانى فتزداد الهوة بين الأداء الفعلى والأداء الممكن ، أى تتسع المسافة الدالة

* أستاذ بكلية البنات جامعة عين شمس .

على حيز النمو الممكن .

كيف ينعكس هذا المنظور على موقف القياس ، وكيف يوظفه القياس

الدينامي ؟

إذا سلمنا بأن أداء الفرد في مواقف الحياة بصفة عامة محصلة للتفاعل بين العوامل الوراثية والخبرات البيئية ، وإذا سلمنا أن موقف القياس ينسحب عليه نفس المبدأ فإن المفحوص في أدائه إنما يعبر عن محصلة التفاعل بين ما لديه من إمكانات وما مر به من خبرات : أسرة حاضنة آمنة ، أو رافضة مفككة ، تعليم مستثير أو تعليم تسلطي ، نماذج اجتماعية إيجابية تنمي الدافعية والتوازن الشخصي ، نماذج سلبية ، خبرات صحية سوية ، أو خبرات مرضية وبين الطرفين تتدرج المتغيرات ... خلاصة القول أن المفحوص يحمل إلى موقف القياس ماضيه كله بإيجابياته وسلبياته . في هذا الإطار كيف يمكن للفاحص أن يفسر المفحوص على بند من بنود مقياس في القدرة الحسابية ، أو التصور المكاني أو غيرها باعتبارها قصورا في قدرة الطفل ، وليس فتورا في الدافعية ، أو قلقاً موقفياً ، أو اجتهادا نتيجة لمرض مزمن أو طارئ ؟ وكيف يعتبر الدرجتين المتساويتين متكافئتين ؟

الأشكالية هنا أنه برغم أن الفروق الفردية حقيقة لا جدال حولها وأن شبكية العوامل المؤثرة في موقف القياس حقيقة لا جدال حولها ، إلا أن موقف القياس موقف مقنن ، فالتعليمات ثابتة ، والمعايير ثابتة ، والفاحص محايد وموضوعي . أما في موقف القياس الدينامي فكل أبعاد الموقف تفاعلية حيث ينطلق الفاحص من الأسس النظرية التي سبق ذكرها ، والتي انبثقت منها تساؤلات يسعى الفاحص للإجابة عنها ، هذه التساؤلات يمكن أن نجملها فيما يلي :

- * ماهي العمليات التي يستخدمها المفحوص عند قيامه بأداء مهام المقياس ؟
- * ماهي المهام التي يجيد أدائها ، وماهي المهام التي يجد صعوبة في أدائها ؟
- * ما معوقات الأداء كما يلاحظها الفاحص ؟
- * مامدى استفادة المفحوص من تدخل الفاحص ؟
- * مامدى قابلية المعوقات للتعديل ؟
- * ما مواصفات التدخل الذي استفاد منه المفحوص ، وما مواصفات التدخل الذي لم يستفيد منه ؟
- * مامدى الجهد المطلوب من جانب الفاحص ومن جانب المفحوص من أجل تحقيق التعديل الممكن ؟
- * ما الامكانيات التي يمكن البدء منها في عملية الأثر ؟
- * مامدى التعديل الذي حدث في أداء المفحوص نتيجة لتدخل الفاحص في موقف القياس ؟

* مامدى التعديل المتوقع بناء على أعلى تقدير للفاحص للتعديل الذى تم ؟

يتبين من التساؤلات السابقة أن الهدف فى القياس الدينامى ليس التصنيف أو الترتيب أو التقويم ، وإنما التشخيص تمهيدا للتخطيط والأثر ، ولذلك فإنه يسعى لتوفير بيئة آمنة ثرية مركزها المفحوص وليس نتيجة الأداء ، المفحوص بكل ما يقوم به من عمليات معرفية وجدانية اجتماعية - هذه البيئة الآمنة يتوفر فيها التفاعل بين الفاحص والمفحوص بما ينشط المخ ويحفز العمليات المعرفية الوجدانية أن تعمل بقدر ما لديها من وسع معرفى ، يقوم الفاحص بتدعيم الإجابات الصحيحة ، وتوجيه المفحوص لمراجعة إجاباته ، أو البحث عن علاقات جديدة ، ويتم هذا التفاعل على أساس خريطة العمليات المعرفية اللازمة لتجهيز المعلومات فى المهام المختلفة ، والى يتم على أساسها تقدير جوانب القوة والضعف لدى المفحوص ، ومقدار ما يحتاجه من إثراء ، وما يمكن أن يحققه من نمو ، الفاحص فى القياس الدينامى لا ينطلق من فلسفة القياس الجماعى المرجع ، فهو لا يقارن المفحوص بمن هم مثله ، ولا ينطلق من فلسفة القياس المحكى المرجع ، فهو لا يقارن المفحوص بمحكات يسعى لتحقيقها ، وإنما يقارن أداء المفحوص التلقائى دون تنشيط أو إثراء أو تفاعل بأدائه وبعد التفاعل ، باعتبار أن ما يحققه المفحوص من تقدم هو دالة على الوسع المعرفى أى على مدى قابليته للتعديل الذاتى ، أى قابليته للتعلم . والفاحص فى هذا التفاعل يطبق المبادئ النظرية الخاصة بقابلية المخ للتعديل الذاتى ، ويحيز النمو الممكن - الفاحص فى هذا التفاعل يقوم بدور الوسيط حيث يسعى إلى تخفيف أثر العوامل التى تحجب الامكانيات الحقيقية التى يسعى القياس الدينامى إلى تقديرها . ويمكن هنا أن نستغير تعبير سترنبرج فى « الدارونية الاجتماعية » ، التى تعنى أن العوامل التى تعوق الفرد عن تحقيق إمكاناته تؤكد وجودها فى موقف القياس غير الدينامى ، مما يرجع أن تكون نتيجة القياس ليست فى صالح المفحوص ، مما قد يؤدى به إلى التعرض لمزيد من العوامل السلبية والظروف الضاغطة .

ولابد هنا أن نؤكد أن القياس الدينامى ليس بديلا للقياس التقليدى . وأن القياس الدينامى لا ينفى مبدأ الفروق الفردية .

فى نهاية هذه التقديم يجدر بنا أن نشير إلى الدلالة الاجتماعية والحضارية لهذا المنهج ، حيث يكتسب القياس الدينامى قيمته العلمية والتطبيقية مع تنامى حركة التغيير والتغير فى المجتمع الانسانى . ذلك التغير المتلاحق الذى يضع الانسان فى مواقف متجددة بصورة تكاد تكون مستمرة ، تفرض عليه أن يظل فى حركة تعلم دائم وتعديل دائم لحياته لاستعادة توازنه الذى تتهدده تلك المواقف بما تثيره من توترات إيجابية وسلبية . من أجل مساعدة البشر يحتاج الباحثون لتقدير الوسع المعرفى الذى يهدهم لوضع خطط التنمية سواء كانت تنمية فرد أو جماعة ، ويعد القياس الدينامى هو سبيلنا لتقدير الوسع المعرفى .